ترجمة

محمد صابر محمود خطاب

أصيب المريض بالدهشة وصوّب نظراته اليه بأنذهال وقال:

- ولكن هناك الكثيرين ليسوا بحاجة الى مثل هذا؟!

- إياك ان تخبر الطبيب بهذا.. فهمت؟

ليكن الله في عون هذا المريض الذي هو الآن في الغرفة، لقد اضطررت الى ان أستعين بشخص من الشارع، لقد مسكناه سوية حين أدخل الطبيب هذا الانبوب في بطنه.. ليت الذي أصاب هذا المسكين يصيب أعدائي، اما عن الآلام والعطاس والسعال فحّدث ولا حرج.. لقد كانت الآلام تسيل من فمه وانفه ويصهل مثل الحيوان وكادت عيناه ان تخرجا من محاجرهما.. لقد أغمي عليه مْن شدة الألم وليس ببعيد انه قد عاد الى وعيه الآن.

حرّك المريض نفسه ململماً شتات قوته وقال:

- هذا الانبوب غير مخصص لي.. فأنا اشكو من البواسير..

وضع الفراش يده على انفه وكأنه لم يشعر برائحة التواليت قبل الآن وقال:

- بواسير!.. اذن انت تشكو من البواسير؟ فليكن الله في عونك.

وعندئذ لملم المريض نفسه وما استطاع ان يفعله في الحالة هذه هو النهوض بسرعة والركض نحو الباب.

بعد فترة خرج الطبيب من الغرفة ووجهه مغطىً بتثاؤب ممل.

- اذا ما بقينا على الحالة هذه فسيكون التشرد مصيرنا.. ترىٰ هل قُضيَ على المرض ولم يبق مريض في هذه المدينة؟ الافضل ان نخلي الساحة..

قال هذا وبعدها غادر العيادة .

قال الفراش بعد ان نهض مسرعاً وقد إرتسمت على محياه مسحة من الشجاعة والقوة.

- تصاب بالأفلاس ام لا .. هذا لا يهمني.. هيا اغلقها.. قسماً بالله انني سأكتب اسمي بدل اسمك.. ولم لا؟ فأنا قادر على إعطاء الدواء للمرضىٰ مثلك انت، واذا ما سببت موت أحد منهم فأن الله سيعفو عني يوم القيامة.

نظر الى الصورة والجمجمة، ومد يده لكي يطفيْ النور ولكنه وقف فجأة واتجه صوب الباب.

* * *

قصة قصيرة للقاصّ الكردي: عبدالله السرّاج

منشورة في مجلة «بەيان» العدد/88 لشهر تموز من سنة 1983

الغرفة رقم "11"

كان السائق كهلاً بديناً. عينان ذواتا رَمَش. معطفٌ قصير مبا بُقعاً مربعة. جّمشتُ (فضيلة) بطرف من سبّابتي:

الا يشبهُ ملحفة الخالة عائشة؟

انزلنا عند مغيب الرصيف. عيوننا حَبَت. شعارات الشوار ذات الالوان الزاهية كانت تقطّر بسمات ووعوداً، امّا الطرم المستقيمة فكانت تتفلُ الواناً شتّىٰ من السيارات.

قلتُ: فلنسرعْ إذن لأنّ ليل (بغداد) يتقيأ الظُلمة.

المدرّجات كانت تتوالد وتعلو صُعُدا، ونحن ـ معها ـ كنّا ندور ونصعد، انفاسنا كادت ان تتقطّع. من وراء منضدة. فمٌ شبيهٌ بالآلة «لا مكان لدينا» أدار وجهتنا نحو الأسفل. مرةً أخرىٰ، في هذه الجهة وفي الجهة الأخرىٰ من الشارع، فندق «سەرچنار» ، «مصطفىٰ» ، «سيروان» ، «باواجي» و... الىٰ ان استحالت «لا مكان لدينا» مجرد تلميحات وإيماءات بالرؤوس.

ـ يا امرأة ، انفاسي قد تقطّعتْ.

وانا ايضاً، اصبتُ بالدُّوار...

ـ انتظري، أنتِ، هنا.. هؤلاء الجشعون الاوباش لا يأوون مَنْ لا يعرفونهم.

تحاملت فسحبت نفسي سحباً، وبقلب خائر خافق صعدتُ.

ماذا رأيت؟ وجهاً متحجّراً. فماً مُطبقاً. دلّيتُ نفسي بأنبوب الماء.

ـ ها !

ـ يا امرأة، كانّي بهم صمٌ، فهم لا يسمعون..

ـ ريقي قد استحال في بلعومي قطعةً من العجين.

ـ وأنا كذلك.

ـ ما عدا أولياء الله الصالحين، فليكنْ مآل البقية الخراب.

ـ آمين. إحملي هذاك.

ـ هوذا فندق..

خفّف كلٌ منا عمّا يعانيه الآخر. هذه المرّة صعدنا سوية. كانت المراقي زلقة ضيقة.

تقدمت أنا:

ـ طاب مساؤكم!

همهمةٌ ما . صوت (حسن زيرهك) كان يُسمع الصمّ.

ـ هل لديكم مكان؟

أنا سألتُ. مدَّ إصبعه نحو (الترانسزتور) فصمت (حسن زيرهك)...

ـ أأنتما زوجٌ وزوجه؟

أردف هو .. قاهـ قاهـ ، قاهـ ، قا ، قا ، قا .

ـ فيما عداها نصلح لأيٍّ من المآزق والمحن!

أجبته أنا. ناولني مفتاحاً. إندفعنا أنا و (فضيله).

ـ يا لَلْفرج ! يخيّل إليَّ وكأنني عثرت على شورة نحلٍ في نخروب شجرة.

ـ وأنا كذلك، يخيّلُ إليَّ وكأنَّ الباز الملكي قد حَطَّ فوق رأسي.

البابُ أوصدناه. ثمَّ قلتَ لنفسي:« أينما تذهبْ فالصراع هو هو قائم يترصّد، ولو صُوّبَ إليّ مدفع (البازوكا) فلن أحجم عن ذكره، فإنّك بين أمرين اثنين إمّا عاصرٌ وامّا معصور»

ضممتُ (فضيلة) الى صدري ومن ثم ـ وبسرعة فائقة ـ قمتُ فأوصلتُ شيئاً من الماء الى وجهي، بعدها صرتُ (فُطرة) وانفطرت أمام أنف صاحب الفندق. قزماً كان مسيخاً، لم تُبقِ معاول الصلع على هامة رأسه ما يمكن ان يقال له شعرة، إلا انه في المؤخرة، وبمهارة صانع قد أحكم على قَذاله قُصاصة من الشعر، ساحباً إياها بكيفية كانت تُخفي جزءاً من ناصيته وتغطّيها، ولو انه ـ اثناء ما كان يكتب ـ أنا النابتُ كالفُطرة، كان يرىٰ بوضوح تام بريق صلعتهِ التي كدتُ أنْ أشبهها بكسرة من مرآة لصبية من صبايا الارياف، لكنما ـ وكما اسلفت ـ تلك القصيبة من الشعر المستعار كانت تؤدي عملها على أحسن وجه وكأن بها صمغاً لاصقاً.

وبالاضافة الى ذلك فإن ما تبقىٰ من آثار الأصباغ واشياء اخرى ـ على صدغيه ـ كانت تُفصح عن نفسها جهاراً مثلما يؤذن المؤذن للصلاة. سلّمتهُ البطاقتين. هو أمعن فيهما النظر، وأنا بطرْف خفي فتشتُ معصمه الموشوم. دائرتان إثنتان غير منتظمتين بلون النيلج قد خُطتا عليه. في الدائرة الاولىٰ، رأسُ لوحشٍ ضارٍ قد خُطَّ شبهته ـ للوهلة الاولىٰ ـ بأسدٍ ممتلئٍ شبعان. وفي داخل الدائرة الاخرى، ذاتُ ريشٍ تُشبه ـ الى حد كبير ـ طائر اليمامة. تلك اليمامة، جُعلت نقطةٌ على شكل خرزة زرقاء عيناً لها. «الأسد واليمامة». تحادثت مع نفسي: «يبدو جلياً، انها ذات اللعبة! يبدو أننا نعود لندور في فلك العاصر والمعصور ! هذه حقيقة لا يمكن طمسُها ولو بجوالق من الحلي والنقود».

عدت أدراجي الى (فضيلة) موجة عارمة من الانفاس، باغتتني. خلت انها من اصابعها ومن شعرها ومفاصلها تتنفس!

رددت الباب مبقياً إياه نصف مفتوح. المفتاح كان من صنف ردييء مصنوع باليد، معّلقاً بخيط اسود بقطعة من (البلاستيك) على هيئة قلب! القلب البلاستيكي، كانت صفحة منه خضراء، والصفحة الاخرىٰ بيضاء، وعلى الصفحة الخضراء، حُفر الرقم (١١) بحيث كان الـ(أحد عشرَ) يُرىٰ بلون ابيض.

اثنان من النزلاء في الغرفة المجاورة لنا، يتكلمان عن سيارات الـ (الكرونا) و الـ (داتسون) ، وقد استعارا صوت الاوز ـ معاً ـ كانا يهرسان دماغي.

كم من بطرلم يلامس (الشامبو) شعره طيلة حياته، إلا انه في الشهر مرتين أو ثلاثاً يغمر سيارته بالشامبو ويجعلها تسبح فيه!!

«إنها الاسطوانة بعينها.. كم.. وكم...».

أنهض من مكاني. أوصد الباب بأحكام، وأشغل المروحة. أتذكر قيظ الظهيرة لذا أهمس في أذن واحد غير مرئي:« إن صيف (بغداد) ثلاثة أصياف موقدة جميعها في تنور واحد. لو قُدّر لك ان تكون خالي الوفاض مفلساً في هذه المدينة، فكيف لا تشتوي من الحرّ!؟».

ويوجد مَنْ، اللعنة على الشيطان، يبدو ان لساني لن يتوقف حتىٰ لو وضعوا صخرة (قارهمان) العظيمة فوق صدري، وكم من غني لا تسع خزانة او خزانتان لما يملك من نقود! إلهي ما ان تتحدث عن شيءٍ حتى تجد نفسك وقد عدت ـ في نهاية المطاف ـ الى كنف من يعتصرِ ومِنْ يُعصَر. يبدو ان كل الطرق تؤدي الى «الميدان». يا لك من ميدان قريب من الحيدرخانة! الآن انت كمثل عِدْلٍ مليءٍ الى أُذنيه، يتماوج فيك الضجيج والضوضاء.. أيْ نغم في زمان غبر، كان مركز ذلك الميدان مبغىً عمومياً، ثلّةٌ من الجندرمة والشرطة كانت تحرس ذلك المجمّع النشاز المبتور.

سوقه كانت اكثر رواجاً من سوق الهرج التي أمامهـا! في ذلك المبغىٰ العمومي، كلُّ بُغية كانت بثمنها تكبت، لان مبلاطه ذلك الزمان، كان يتوهم بأن كل الدروب الى (كوكتـزر) تؤدي. ومن الميدان نفسه، الحافلة رقم (٤) في ذلك الوقت والى الوقت الحاضر تتوجّه نحو القصر الابيض.

كنت في ريعان شبابي عندما تعرّفتُ ـ في ذلك الميدان ـ بواحدة تحمل اسم (فضيلة) . عرفتها وعلمت ـ فيما بعد ـ أنها من مدينتي وقد هربتْ من زوجها السجّان، وكنت أعلم مُسبقاً بأنّ لها أخوين من ذوي الشوارب المفتولة. جعلتني (فضيلة) موضع ثقتها، فاطمأنتْ إليّ. وكانت دائماً وفي كلّ لقاء ـ فيما بيننا ـ تجهش بالبكاء وتذرف الدمع السخين وتنظر بعيني دجاجة وجلة الى ما اقترفته هي من عمل شائن مليٍّ بأوخم العواقب. على أيّة حال، فقد كنت أظنُّ بأن لا مثيل لمثل (فضيلة) العفّة الطاهرة التي لا تشتهي العـين إلّا ان تتملّىٰ سحـر جيدها الفتّان. وجه طفـولي، جسد متبـرعم غضّ، عنق إوزة وقوام عرعرة، وعينا ظبية، كنت أجد كلّ هذا الحسن فيها، لذا ساورتني فكرة انتشالهـا من وهدة ذلك المستنقـع النتن، من ثَمّ أصبُّ عليها أربعين سطلة من الماء وأغسل نجاستها سبع مرات بالطين الاحمر، بعدها نشدُّ رحالنا نحو مدينة .. مدينة !! أيّة مدينة؟

ها نحن، بالرغم من بطاقتين وبألف جرجرة ومغصّة، لم نصدّق بأننّا قد وجدنا هذا الجُحر الذي نأوي اليه بذيلينا!

ما أطوله من عمر! دال الزمـان ودارت الارض، حرّك الثـور المعتلي ظهر تلك السمكة قرنيه فغدت عوالي أشياء كثيرة أسافلها. في ذلك الزمان قباقيب «كركوك» كانت تضاهي في الشهرة «كلاشـات»

«هرسيني» ومَنّ «السليمانية» وحمص «گەورەدى».

كنت حاملاً بيديّ زوجاً بديعاً من القبقاب مع ليفتين فاخرتين عندما ولجتُ ذلك الزُقاق. لم اكن قد بلغت المنعطف بعد حين أربكت جلبةٌ ما هناك الخُطىٰ فقصّرتها. مـاذا أرىٰ ؟ لمّةٌ وضـوضاء! ـ وفي الوسط ـ دمٌ غزير متخثرّ ! أحد بائعي المراوح اليدويّة رواها حيث هو بدوره ـ ايضاً ـ عن واحد اسمه (أحمد) وأحمد هذا كان قد سمعه من ذلك الرقّاع الذي برأس المنعطف: بأنّ رجلاً غليظَ الشاربين، كان قد ذبح (فضيله) كما تُذبح الشياه، ثمّ سلّمَ نفسه.

اظلّمتِ الدنيا بعيني «وا مُصيبتاه ! لو قُرّولك وكنتَ إمرأةً في هذا البلد تنزلقُ قدماها وتسقط في حمأة الرذيلة!» «حتماً وكالكلب المسعور سوف تُطعم خبـزاً محشوّاً بـالابر!». لم أدرِ مـاذا فعلتُ بالقبقـاب والليفتين. وجّهتُ وجهي لشارع الرشيد.

لم تكفّ الارض عن دورانها. والثور ظلّ ـ كما كان ـ معتلياً ظهر تلك السمكة، حين رمت الاقدار في طريقي هذه الـ (فضيلة) التي هي الآن تعاشرني هنا في هذا الفندق.

ـ فضيلة .. ألا تستيقظين ؟

ـ م ۰ م ۰ م ......

ـ أوِ تحلمين ؟ يبدو أنّ مَنْ هم من أمثالنا ليس بمقدورهم غير ان يحلموا او ينجبوا الاطفال.

وجهي الآن يقابل الشباك. أُزيح طرف الستـارة. ومن خلال نسيج الستارة يلوح لي مثلث صغير لاديم السماء، تستـدقّ إحدىٰ نهاياته حتى يستطيلَ قليلاً. مثلث طويل بلون البنفسج. القمر منشغلٌ بتطريز هالته، وفي الطرف الآخر المحُ ملءَ عِدلِ عباءةٍ نُجيمات غاية في الصِغَر . المتلألئات منهنّ يداعبنَ بعيونهنّ صويحباتهنّ الكليلات، امّا الشارع التحتاني فأراه وكأنة أفعىً سوداء تجمدّتْ أوصالها فتمددّت دون حراك. أقول لنفسي:

«غداً، هذا الشارع بعينه، وبوهجِ الشمس القويّة، يضع المئات من بيـوض الأفاعي والعَلَق». أديـر ظهري للشبـاك. ينطبـع المثلث البنفسجي لاديم السماء على دماغي، بل ومئـات أخر من المثلثـات الملونة الزاهية تتقافز وتتواثب في احساسي وشعوري، وفي وسطها ـ جميعاً ـ مثلث ذو برعم نهم يُقبل بوجهه على مثلث (برمودا) المشعر. اشعر بطعم العسل، ثمّ أركن الى حافة السرير.

ـ فضيلة ...

(فضيلة) تمرّر بأناملها على عينيها. وأنا، تحطُّ راحـةُ كفّي ـ كقبحِ الليف ـ على طراوة كتفها. (فضيلة) تُدير صفحة وجهها وتلهج باسمي..

ـ ميرزا ...

وانا كذلك، ألهج باسمها : (فضيلة).

يعتصرُ أحدنا الآخر على أملِ أنْ نقرّبَ من مدينتنا، مشروعَ ابتسـامة مـا. أنا اعتصـرها وهي تعتصر. تـارةً أنـا المعتصِرُ وهي المعتَصَرةُ ، وتارةً أخرى ، المعصور هو أنا وهي التي تعتصِرُ.

عجباً! لقد عدنا ـ كرّةً أخرى ـ لنقف وجهاً لوجه أمـام نفس اللعبة المأساويّة ، يميناً، لو حمّلتُ وزرَ إحراق (الرايخشتاغ) ، فلنْ أُفرّطَ بما قلته، لأنّ ذلك الصراع لمّا يَتعدَّ ـ قيد شعرة ـ تلك الحقيقة بعدُ، إنّك إمّا معتصِرٌ لغيرك وإمّا مُعتصَرٌ بغيرك.